فأنت من تعلم
لأنك كائن منذ البدء

فأنت تجلس كالحمامة
جناحاك قويتان
مبسوطتان
تتأمل الفراغ وتجعله مفعما بالمعاني

أيها الروح القدس
أنر كل ظلام داخلي.

هذه صلاة جون ميلتون إذ أمسك بقلمه
ليكتب مسرحية الفردوس المفقود.

كان من أحب الأمنيات إلى قلبي أن نلتقي مرة أخرى. كان آخر لقاء لنا دراميا تشاركنا معا مشاهدته.
أما لقاء هذه المرة فهو قصة حب. قصة حب لا تضارعها جميع قصص الحب. وثقتي أنك مع نهاية القصة ستشاركني رأيي.

الفضاء. عاش في زمن قبل الأبديات، **إنه الله**. لم يكن الفراغ يتسع لأي شيء آخر. كان الشخص الذي لم يخلقه أحد. كان هو **الكل**.

في هذه اللحظة من اللازمان الذي يضرب في جذوره القدم، لم تكن سوى صورة واحدة للحياة... أسمى حياة.

كان أيضا هو الحب.

حب دافئ، عاطفي، متدفق.

كان في هذا الإله القائم بذاته ومفرده، مفارقة: فمع أنه وحيد إلا أنه كان محبة. ومع ذلك فلم يكن له نظير ليحبه. ورغم أن حبه كبير وقوي، فليس من شخص يتلقى هذا الحب.

ثم دق نبض الحياة، وومض النور في مجد جديد إذ تصاعد إعلان داخل كيانه وهتف من وسط مجلس ذاته الإلهية.

يمكن أن يوجد اثنان!

"أنا الإله الحي سأحصل على نظير!" وإذ أسعده الإعلان فقد كرس كيانه كله لتحقيق مهمة واحدة: أن يكون له ...عروس.

وهكذا لوهلة ما هذا الكيان الوحيد غير المحدود اختلى بنفسه.

المدى. وإذ أخفى الله الحي هذه الأقدار المستقبلية، فقد كرس جهوده لتحقيق أسمى أحلامه. والآن ستنتهي حالة الوحدة المتناهية. وهكذا تكلم الله فقال: "ليكن......"

وفي كلمته تنازل عن كونه كل شيء وأفسح جانبا لشيء آخر غير الإله الكلي. وللحظة قصيرة ظهر الله وهوة شاسعة من اللاشيء.

لم يحدث من قبل أن شهد تاريخ الله مثل هذا التغيير الجذري ولم يحدث سوى تلك المرة منذ ذلك الحين. والآن عندما ترددت عبارة "ليكن.........." عبر فضاء اللاشيء ظهر وميض بالغ القوة ملأ تلك الهوة بالفراغ وفجأة لم يكن الله غير المخلوق بمفرده إذ ظهر الآن شيء *مخلوق*.

خلق *النور*. والآن نرى *صورة* الله تشاركه الفضاء.

ثم خلق عالما من الأرواح. وهكذا ملأ هذا العالم الذي لا حدود له مثل خالقه خارج جميع المحسوسات المحدودة. غير أن هذا العالم الروحي غير المرئي كان *داخل* الله. أسمى هذا المكان البيت السماوي. ورغم أنه كان مكانا في داخله فقد سُرَّ أن يتواضع ويقيم هو فيه.

الله فهو حي في أبدية الماضي، وأبدية الحاضر، وأبدية المستقبل، أما هم فهم يتحركون للأمام فقط، نحو أبدية المستقبل).

ليس لهم نظير ولكنهم يستمتعون برفقة بعضهم البعض. ولكن هؤلاء الرسل لا يشبهونه بالمرة في أحد الأوجه وهو أنهم لا يستطيعون أن يحبوا. باستطاعتهم أن يمجدوا نعم! ولكنهم لا يستطيعون أن يجبوا.. كما هوَّ أحب.

ومع أنهُ سُرَّ بهذه المخلوقات الحاضرة لديه، ومع أن وحدته انتهت أخيرا فقد كان يشعر بوحدة من نوع آخر؛ فالشيء له نظيره، والنوع له مثيله، أما هوَّ فلا مثيل له.

ومرة أخرى يتحدث الله بصوت عالٍ ويخاطب هوة اللاشيء التي تكشف بدورها عن شيء .. عالم مرئي يتفجر بفعل كلمته.

تحدث مرة أخرى وبمجرد أن تكلم اكتظ هذا العالم المرئي بأنوار تحدث شرراً وأجرام دائرية.

ثم مد يده للأمام لتسقط من أطراف أصابعه كتلة صغيرة غير محددة المعالم وقال "سأعمل على هذه الحبة الصغيرة فهي موضع هدفي الأسمى من الخليقة".

حياة تستطيع أن تصرخ بصوت عالٍ. ولكن أغرب ما شاهدوه على هذه الكرة الخضراء الزرقاء هوَّ أن كل شيء فيها كان اثنين!

بل إن هذه الثنائية كانت غريبة في نوعها! لم يكن أي من هذه المخلوقات محايداً بل كانوا ذكوراً – أقصد نصفهم كان ذكوراً! ولكن الأمر غير المفهوم حقاً هوَّ النصف الآخر! لم يكن النصف الآخر محايداً، ولم يكن ذكوراً ولكنه كان جنساً جديداً ويفوق كلا منهم! لقد كان النصف الآخر إناثا. كان للذكر نظير، كل نوع حسب نوعه. الشيء ونظيره!

كان المفهوم غريباً حتى أن الملائكة أخذوا يتحدثون عنه ولكن في همس وقور، وهم يحملقون في براءة فطرية نحو إلههم متسائلين: ما الذي دفع الله لخلق أشياء حية في أزواج... لكل ذكر *أنثى*!

وهكذا حملقوا، وتساءلوا، ونظروا لهذه المخلوقات الجديدة قائلين،

مثلنا يعيشون ويتحركون

مثلنا لهم من هم مثلهم

ليسوا مثل الله أو الملائكة

فكل له نظيره.

ولاحظوا أن جميع الكائنات الحية لها ما يناظرها، فيما عدا واحد.. الله مازال بمفرده.

الفصل الأول

كان اليوم السادس من الخلق قد أوشك على الانتهاء وقد شعر الرب بالإجهاد، ومع ذلك اندهش الملائكة إذ رأوا أنه منهمك في خلق شيء آخر نهائي.

"سوف تستوعبون ما أنا موشك على عمله لأنكم أسمى صور الحياة في العالم غير المرئي وأسمى الخلائق غير المرئية."

توقف عن الكلام وانحنى والتقط من الأرض حفنة من التراب. ونظر برهة للتراب ثم قال "سأخلق من هذا التراب الأحمر أسمى صور الحياة في العالم المرئي. والمخلوق الذي أنا مزمع على عمله سيحكم الكون المادي كما أنا أسود على العالم الروحي."

وفجأة تغيرت تعبيرات محيا الخالق. كان يبحث عن شيء... شيء في كيانه هو. وببطء أخرج ذلك الشيء من داخل كيانه وحفره في الطمي. وبمجرد انتهاء آخر لمسة تشكيلية تراجع الله مبتعداً عن التربة اللينة ليرى الملائكة بوضوح عمله الكامل. وإذ بهم يشهقون في دهشة ويهتفون جميعاً.

إنه صورتهُ! ولكنه **مرئي!**

تنفس الرب الإله..

فارتعشت أنف الطمي وتوهجت وإذ بالطمي الرطب يتحول إلى لحم، ويتكاثف على بعضه، وتدب فيه الحركة ويتنفس في هدوء.

وكأن الرب يتراجع للخلف وهو يتأمل مفكرا. أدار أحدث مخلوقاته رأسه وحملق لوهلة في هذه البانوراما الهائلة من المخلوقات الكونية المجتمعة حوله. ثم في حركة طبيعية جلس الرجل ذو الصبغة الوردية اللون وحول رأسه ناظرا لوجه جابله.

عندئذ اقترب الرب من النموذج الذي صنعته يداه ومرة أخرى يوشك وجهاهما على التلامس بينما تهمس الملائكة معبرة عن إعجابها.

"لماذا... لماذا.. أنهما يتطابقان... وكأنهما شقيقان"

من بين العدد الهائل للكائنات التي صنعتها يد الإله الخالق لا يوجد سوى كائن واحد يمكن أن يقال عنه إن "الرب الإله كان يفكر في نفسه عندما خلق هذا الإنسان" وقد جاء هذا المخلوق الأخير ذكرا تماما كما خمنت الملائكة. لم يكن شيئا وليس

المرئية والملائكة غير المرئية لأنه يستطيع أن يحب.

ومثل الله فهذا المخلوق المدعو إنسانا ليس له نظير. وهكذا انضم الإنسان إلى رفقة إلهه فأصبح كل منهما كائنا حيا يستطيع أن يحب، ولكن لا يوجد شخص "آخر" ليقدم إليه ذلك الحب. وبخلاف جميع المخلوقات فإن الإنسان هو الذكر الوحيد الذي ليس له نظير.

حقا الإنسان كان صورة الله.

الفصل الثالث

كان اليوم السابع يوم راحة للخليقة كلها. ولم يسفر أسمى عمل في اليوم سوى عن تعجب ودهشة.

وبينما يسيران يقول أحدهم ثم الآخر:

"نعم هذا جميل"

"هذا أيضا جميل"

ولكن مع قرب نهاية اليوم أصبح تصرف الإنسان غريبا يثير القلق. كان يثبت أنظاره على شيء بعيد غامض ثم يفاجأ إذ يقترب منه، إنه أسد أو فهد أو نسر، ولوهلة يسقط وجهه. ثم يدير رأسه ببطء ويتمتم على نحو قد يثير شجن السيرافيم "أنهما اثنان دائما".

زادت حدة توتر الإنسان (الرجل) ومع مرور الوقت انتقل هذا القلق لإلهه.

"لقد رأيت جزءا كبيرا من خليقتي، رأيت القسم الذي أوكلتك بحكمه. هل لاحظت أي شيء في هذا العالم الفسيح ليس جيدا؟"

ألقى الإنسان بنظرة متأنية على عالمه الغض المترامي الأطراف. بالطبع لا جدال في الحكم الذي سيصدره. كل شيء حسن.

ومع ذلك ليس كل شيء.

بينهما وحدهما دون كل الأحياء.

وأخيرا كسر الرب الإله حاجز الصمت.

"لنتأكد إذا هل حقاً كل الأشياء في خليقتي حسنة".

أدرك الإنسان بفطرة روحية داخله أنه سيدعو جميع خلائق الأرض ويدعوها بأسماء.

جاءت الحيوانات أزواجا كل مع نظيره. ظهر الأسد أمام الإنسان مع لبوأته، والحصان مع الأبي أنثاه، والثور مع البقر. اثنان وراء اثنان... دائما اثنان.

ما الذي ينقص هنا؟ بدا في عينيه نظرة شرسة وهو يصرح "أنا حاكم هذا العالم.. ولكني وحيد، أين نظيري؟

عبر آخر زوجان. نظر إليهم الإنسان بجنون وشرع يجري في الوديان والتلال حتى جاء على جرف جبل عظيم وبدأ يتأمل الأفق.

هتف قائلا: "هل أنت موجود؟ هل أنت موجود؟"
جاب الكرة اليابسة كلها، وفتش القمر والبحور ولكنه عاد ببطء وصمت إلى الوديان لإله ينتظر ويفهمه حق الفهم. مرة ثانية

في هدوء.
"أنت صورتي أيها الإنسان. ولكنك وحدك، وليس حسنا أن تبقى هكذا"
تأمل الإنسان وجه الله لوقت طويل قبل أن يجيب.
"أنا كما قلت... وحيد".